مدخل إلى الأدب المقارن–سنة ثانية ليسانس–.....(د.حميدة سليوة)

المحاضرة رقم 2

الأدب المقارن النشأة والتطور

يرتبط نشوء الأدب المقارن بسياق تاريخي عرفته فرنسا وهو القرن 18م، وقد تميزت هذه الفترة إلى القرن19 ثقافيا بانتشار البحوث التاريخية والفلسفة الوضعية، وهو كعلم مرتبط بظواهر التأثير والتأثر بين آداب الشعوب المختلفة لغويا وعرقيا وثقافيا، وهذه الأخيرة قديمة جدا قدم الأدب الإنساني، ألم يتأثر الأدب الروماني بالأدب اليوناني القديم؟ أو لم يتفاعل الأدب العربي مع جاره الفارسي، والأمر ذاته مع الآداب الحديثة والمعاصرة، وهكذا شكلت هذه العلاقات العفوية مادة للأدب المقارن كمجال معرفة، وذلك أن الظروف التاريخية لم تكن لتسمح بظهور هذا المجال قبل القرن التاسع عشر، وان كانت له إرهاصات قبل هذا التاريخ.

1-إرهاصات الأدب المقارن:

1-1-عصر النهضة:

كان ظهور مصطلح الأدب المقارن مع أبال فيلمان Abel Villemain عام 1828 ، في واحدة من محاضراته حول علاقات الأدب الفرنسي مع الآداب الأوروبية الأخرى، لا يعني أن تاريخ الدراسات المقارنة بدأ مع فيلمان، فمحاولات المقارنة بدأت مع عصر النهضة(القرن 15 و16)، وهي الفترة الأدب الكلاسيكية(1660-1680)، حيث لمعت مجموعة الثريا La pléiade الفرنسية في محاكاة الأدب اليوناني واللاتيني القديم ضمن ما يسمى بنظرية المحاكاة Imitation:« **أصبح الاهتمام الرئيس ينصب على تأسيس وتطوير ونشر نظرة إلى الأدب موروثة عن عهد الإغريق والرومان، وكانت المصادر الرئيسية في الأفكار.....وكان موضوع المناقشة الكبير هو العودة إلى الأقدمين ومحاكاتهم»**[1]، وهكذا عملت المؤسسة الأدبية في فرنسا على تكريس نموذج أدبي مطلق بالإضافة إلى النزعة اللغوية المتعصبة للغة الفرنسية لغة الأدب والأرستقراطية، وعند ذكر الرومان اللاتين تبادر إلى الذهن أثر الثقافة اليونانية في الرومان، ومن تأثر فرجيل بهوميروس وهوراس أرسطو وشيشرون بديموستين، وكانت من أقدم العلاقات الأدبية القائمة بين الدول، وساعد الاطلاع على الآداب القديمة في وضع أسس الأشكال الأدبية.

1-2- عصر التنوير:

واستمرت الآداب القديمة تمارس تأثيرها ووهجها ضمن ما يسمى بعصر الأنوار(1751-1772-حيث اتجه النقد إلى الفصل بين الفنون الأدبية بتأثير من النماذج القديمة، ومن أثاره الايجابية :«**ترسيخ الإيمان بقدرة الإنسان على التقدم والتطور، والإيمان بأولوية الفكر العقلاني وما ترتبط به من مقتضيات البحث التجريبي والحس النقدي»**[2]، وتخلص الفكر من الظلامية والأحادية التي دفعت فرنسا إلى الخروج من التمركز على الذات، وبالتالي تجاوز حدود الأنا والانفتاح على الآخر والأدب الآخر، وهي خطوة مهمة في التحولات الفكر الأدبي، والممهد للانفتاح الأدبي على الآداب الأجنبية من أجل إغناء الأدب، وبالتالي إقامة قنوات تواصل بينها وبين الأدب القومي، وقد تكثفت صلات الآداب الأوروبية

[1]-أراق بن محمد(سعيد): الأدب المقارن في ضوء التحليل النقدي للخطاب، دار أسامة للنشر والتوزيع ونبلاء ناشرون وموزعون عمان الأردن، ط 1، 2015

[2]- أراق بن محمد(سعيد): الأدب المقارن في ضوء التحليل النقدي للخطاب، ص 50.

يبعضها البعض خلال القرن 18من خلال وسائط عدة منها الترجمة والصحافة والرحلة والرسائل وهذا ما ساعد على المرور بالأدب القومي إلى العالم.

ومن أهم العوامل الممهدة لظهور الدراسات المقارنة كان ظهور **علم تاريخ الأدب**(ق18) المساهم الأهم في ميلاد الأدب المقارن:« **طبيعيا أن لا يجد الأدب المقارن، وهو جزء من تاريخ الأدب عامة سبيله إلى الوجود، ذلك أنه لا يمكن أن تجرى المقارنات في غياب تواريخ الآداب الوطنية»**[1]، والاتجاه إلى التأريخ للأدب الوطني دفع الدارسين فيه إلى البحث في تاريخ علاقات الأدب الفرنسي مع الآداب الأوروبية الأخرى كالاسبانية والانجليزية منها[2].

1-3-الرومنسية:

جاءت الرومنسية مقوضة لمبادئ الكلاسيكية، وجعلت من الآداب الأوروبية جميعها في خانة واحدة ومعايير واحدة، وهي التي سمحت للآداب الإقليمية بأن تكتب لغتها المحلية وانتصرت للأدب الأجنبي والمحلي على حساب الكلاسيكي الارستقراطي، وتزايدت معها النزعة إلى الخروج من النطاق القومي والانفتاح على الآداب الأخرى.

وتوثقت العلاقات بين الآداب الأوروبية في المرحلة الرومانسية(ق19)، التي ساهمت في تطور تاريخ الأدب والنقد الأدبي، والتخلي عن الآداب القديمة بل الاطلاع على الآداب الأجنبية، وإعطاء الفرصة لكل أدب دون تفريق ولا مركزية، ثم الإيمان بـ:« **روح العالم التي كانت عنوان الكتاب الذي نشره شيلينغ سنة 1798هي التي أحدثت التقارب بينه وبين غوته، وهي التي صاغها هذا الأخير في مفهوم الأدب العالمي»**[3]، وهي أن تقر الآداب القومية بتعددية الأدب والحاجة إلى التنوع والاختلاف راجين من ذلك التناغم تحت مظلة مذهب واحد وروح عامة واحدة، فكانت الرومانسية بذلك أداة تواصل بين الآداب المختلفة ومساهمة في قيام الأدب المقارن، بروح الانفتاح والمساواة التي حملتها، كما هي جهود مدام دستايل القائلة:« **الأمم ينبغي أن تستهدي كل واحدة منها بالأخرى»**[4]، حيث شجعت على المقارنة بين أدبي الألمان والفرنسيين، وأثنت على أهمية التبادل الثقافي بين الشعوب[5]، وكان لها ولكتابها دور في الكشف عن خصوصية الأدب عند قرائه الأجانب.

وكل ما مر هي إرهاصات لا غير فلم يثبت وجود أي محاولة جادة وعلمية من أجل استكشاف التأثيرات والتأثرات بين الآداب، بل أن كل أدب كان يعتقد بأصالته وتفرده دون غيره من الآداب، وهذا ما يسمى بالمركزية الأوروبية.

2-النشأة والتأسيس:

2-1- النهضة العلمية:

شهدت أوروبا ثورة علمية هائلة أواخر القرن18 إلى بدايات القرن 19، أدت إلى نهضة معرفية قوامها الفلسفة الوضعية والمنهج العلمي والموضوعية، وكان لها تأثير كبير على النقد والدراسات الأدبية، وهذا ما شجع مؤرخي الأدب أمثال **هيبوليت تن** Hippolyte Tainعلى تكييف المناهج الأدبية مع هذه المبادئ؛ فقد اتجهوا إلى المقارنة من أجل

---

[1]-فان تيغم(بول): الأدب المقارن، تر: سامي الدروبي، دار الفكر العربي مصر، ص 19.

[2]-تجدر الاشارة إلى جهود فولتير الذي عرف الجمهور الأدبي بعبقرية شكسبير وسهل عملية تأثر الأدباء الفرنسيين به

[3] - أراق بن محمد(سعيد): الأدب المقارن في ضوء التحليل النقدي للخطاب، ص 53.

4-درويش(أحمد): نظرية الأدب المقارن وتجلياتها في الأدب العربي، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع القاهرة ،2002 ص 22

5- الصادر عام 1810De L'Allemagne- في كتابها من ألمانيا.

استنباط الحقائق العلمية وفهم الظواهر الأدبية، وحاول هذا الأخير:«**أن يقيم تاريخا للأدب على أساس موضوعي، تفسر فيه الظواهر الأدبية من خلال ارتباطها بظواهر كونية وخصائص بشرية أكثر اتساعا، مثل خصائص السلالات البشرية(الجنس) والخصائص المكانية التي يعيش فيها شعب من الشعوب(البيئة) ثم الإطار الزمني الذي يتم فيه حدوث لون ما من الإنتاج الأدبي(العصر)**»[1]، وهو بهذا ينقل المفاهيم من علم البيولوجيا إلى الدراسات الإنسانية، وقد بني تين:«**نظرياته جميعا على مبدئين: أن التأثير متبادل بين العوامل الطبيعية والعوامل النفسية التي تتضافر معا على نمو الجنس البشري وأن يحدث العلم لا بد أن تؤثر في الأدب والفن**»[2] ، وبالتالي التجديد في أساليب دراسة التاريخ الأدبي وتوسيع المجال من الأدب القومي إلى الآداب العالمية، فأصبح النص الأدبي كالوثيقة التاريخية.

كما كان لسانت **بيف** دور Sainte beuveالواضح في الدفع بالدراسات في مجال الأدب إلى المقارنة، خاصة في:« **نظرية الفصائل والأنواع وفي هذا الاتجاه كتب دارون(1809-1882) كتابه المشهور عن أصل الأنواع، وبنفس الروح كتب سانت بف عن الإنتاج الأدبي**»[3]، فهو يدعوا إلى تقسم الأدب إلى عائلات وتحديد ملامح كل عائلة، على غرار ما يحصل في علم الحيوان والنبات، وهو يدعو كذلك إلى تجاوز الحدود اللغوية للآداب.

دون نسيان **برونتيار Brunetier**وتعود إليه البدايات الأولى للدرس المقارن، الذي رأى بضرورة معرفة مستوى تطور الأدب الفرنسي من خلال مقارنته بالآداب الأخرى، ومعرفة ومتابعة التطورات الحاصلة في مختلف الأجناس الأدبية، دون أن ننسى أن المقارنة :« **أحد أهم ملامح القرن التاسع عشر، سواء في حقل الأدب وعلوم اللغة(النحو المقارن)، أو في حقل العلوم(الفيزيولوجيا المقارنة)**»[4]، وكان هؤلاء أهم نقاد القرن 19 بالاضافة إلى جاستون باري وجوزيف تكس ولا يزعم أنهم قاموا بمقارنات بين آداب لكنهم كانوا خطوة في التمهيد إلى ظهور الدراسات المقارنة في المجال الأدبي.

ولابد من الإشارة إلى أن **النزعة إلى المقارنة**، باتت مطلع القرن التاسع عشر اتجاها غالبا في حقول معرفية عديدة، عرفت مصنفات في « **حدد كوفيي منهجه الدقيق في مؤلفه التشريح المقارن الصادر ما بين 1800و1805، وفي الطفرة نفسها تطور علم وظائف الأعضاء المقارن وعلم الأجنة المقارن**»[5] والكيمياء المقارنة، فكانت المقارنة إجراء مهما في كل العلوم من أجل الكشف عن الخصائص المشتركة واستنباط القوانين، ثم وصلت هذه الموجة إلى الدراسات اللغوية والأدبية كالفيلولوجيا والنحو:« **سنة 1821 أصدر فرانصوا رينوار كتابه النحو المقارن للغات أوروبا اللاتينية وعلاقتها بلغة التروبادور**»[6]، المقارنة يمكن لها أن تكشف مدى تأثر لغة ما بأخرى كما هي اللغة البروفانسية وتأثرها باللغة اللاتينية، ويندرج هذا ضمن تأريخ للغات واالمقارنة إجراء فيه، كما هو علم الأسطوريات المقارن والجغرافيا المقارنة والتاريخ المقارن.

لهذا كان ظهور مصطلح الأدب المقارن في السياق الجامعي الفرنسي، انسياقا مع الموجة العامة السائدة آنذاك، بالإضافة إلى نشاط الترجمة الملحوظ الذي ساهم في الانفتاح على الآداب الأخرى الذي ظهر في المجلات والصحف، وقد

---

[1] - درويش(أحمد): نظرية الأدب المقارن وتجلياتها في الأدب العربي، ص 23.

2المحمودي(رامي فواز أحمد): النقد الحديث والأدب المقارن، دار الحامد للنشر والتوزيع عمان الأردن،2007، ص117.

[3]- المرجع نفسه، ص 22.

[4]- أراق بن محمد(سعيد): الأدب المقارن في ضوء التحليل النقدي للخطاب، ص 54.

5-برونيل(بير): ما الأدب المقارن، ص 27.

6-برونيل(بير): ما الأدب المقارن، ص 27.

شهدت فرنسا ازدهارا ملحوظا في حركة الترجمة وهو ما ساعدها على الاطلاع على الآداب الأخرى ومقارنتها، بل وازدادت العلاقات بين أدبها والآداب الأخرى عمقا، بالتضافر مع عوامل أخرى كظهور الصحافة والمجلات الأدبية، وكلها عوامل دفعت الدراسات الأدبية إلى الأدب المقارن دفعا.

2-2-النشأة:

يعتبر كل من **أبيل فيلمان** villemain **Abel**، **وجان أمبير** Ampére.J.J، **فيلاريت شال** Philarete Chasles المؤسسين للأدب المقارن في القرن 19، قدم أبيل فيلمان سنة 1828 دروسا بالسوربون نشرت فيما بعد:«**عالج فيها تأثير إنجلترا وفرنسا في بعضهما البعض، ثم تأثير فرنسا في ايطاليا خلال القرن الثمن عشر**»[1]، وهو بهذا يعرف جموع الدارسين بممارسة نقدية ستسمى فيما بعد بالدراسة المقارنة للآداب، وتعد محاضرات فيلمان:«**أول كتاب منهجي في الأدب المقارن**»[2]، لما فيه من دراسة دقيقة وفق التسلسل التاريخي لما أخده الفكر الفرنسي من غيره من الآداب الأجنبية، أما الاصطلاح"الأدب المقارن" فلم يظهر عند فيلمان إلا عام 1838[3] في سياق حديثه عن ما أخده الأدب الفرنسي عن غيره من الآداب الأجنبية.

شهدت هذه الفترة ظهور أوضح للأدب المقارن عام 1830 ضمن محاضرات **جان جاك أمبير** التي كان يلقيها في أحدى ثانويات مرسيليا تحت عنوان:«**التاريخ المقارن للفنون والآداب عند الشعوب كلها**» حين صرح قائلا:« **إذا كان الأدب علما، فهو ينتمي إلى التاريخ كما ينتمي إلى الفلسفة**»[4]، وهو بهذا الأدب المقارن تابعا للتاريخ الأدبي، وهو جزء منه وضرورة لإتمامه، ولأمبير الفضل في تأسيس علم تاريخ الأدب.

وأما **شال** صاحب كتاب"الأدب الأجنبي المقارن" صاحب مقولة:«لا شيء يعيش منعزلا، فالعزلة الحقة هي الموت»، في إشارة إلى أن الآداب تتواصل فيما بينها، وليس هناك أدب في العلم في إمكانه العيش منفردا، فالكل يستعير ويأخذ من الكل، وكان هو الأخر من المؤمنين بعدم استقلالية الأدب المقارن عن التاريخ الأدبي، مع إبراز حركية التأثير والتأثر بين آداب الأمم المختلفة، خاصة «**آداب الشمال**»[5]، منوها لأهمية التبادل الفكري بين الآداب.

ومع حلول عام 1840 أصبح الأدب المقارن مقرر أساسيا في العديد من الجامعات الفرنسية، ومن فرنسا انتقلت موجة الأدب المقارن إلى مختلف الجامعات الأوروبية، بداية من سويسرا، بتأثير مدام دستايل وكتابها "من ألمانيا"، ثم الأستاذ جوزيف هورنونغ عام 1850 الذي قدم دروسا في الأدب المقارن في أكاديمية لوزان، إلى ايطاليا سنة 1863 ثم المجر عام 1877، وقبلهما إنجلترا وألمانيا عام 1848، وهكذا وخلال عقود قليل أصبح الأدب المقارن مادة أساسية في كل مقرر جامعي في أوروبا، وما كاد القرن التاسع عشر ينقضي إلا وقد سافر إلى الولايات المتحدة الأمريكية، حيث أدرج في جامعة كولومبيا عام 1899وجامعة هارفارد 1904.

2-3- التأسيس:

1-برونيل(بير): ما الأدب المقارن، ص 28
2-درويش(أحمد): نظرية الأدب المقارن وتجلياتها في الأدب العربي، ص 24.
3- برونيل(بير): ما الأدب المقارن، ص 29
4- برونيل(بير): ما الأدب المقارن، ص 29
5- برونيل(بير): ما الأدب المقارن، ص 31.

ما كاد القرن التاسع عشر ينقضي إلا وبدأ أسس هذا العلم تكتمل وتظهر، بفضل مجموعة من الباحثين المقارنين الذين أخذوا على اعتقاهم، وضع أسسه ومبادئه واستخلاص موضوعاته ومجالاته. أهم من يجب ن يذكر في هذا المقام هو **لويس بول بتز (Bates)** وكان متأثرا بواحد من الأعلام آذاك وهو **جوزيف تاكست (Texte)**وكان لهذا الأخير مجهود معتبر من خلال كتابه" دراسات في الأدب الأوروبي" 1898 في دراسة الصلات بين الآداب الأوروبية وتطور الأفكار وربطها بتطور المجتمعات، مع انه لا يوافق من سبق ذكرهم على اعتبار للتاريخ الأدبي. علما وأن يشبه بالعلوم الطبيعية[1].

يقدم بتز قائمة ببليوغرافية ممنهجة ومصنفة بمؤلفات الأدب المقارن، وهي الأولى من نوعها في ذلك الوقت، ضمت كل ما كتب من كتب ومقالات ومحاضرات مع تبيين اللغة والبلد التي ينتمي إليها صاحب المؤلف، ضم الكتاب أكثر من 2000 عنوان، وبهذا فهو يضع أمام الباحث في مجال الأدب المقارن خزينة من المراجع التي تسهل عليه البحث، وهذا فهو على غرار تكست يعامل الأدب المقارن كمجال مستقل عن التاريخ الأدبي وعن النقد.

ومن أهم الانجازات المقدمة في سبيل تأسيس علم الأدب المقارن والترسيخ له في الجامعة والدراسات الأدبية ما قدمه **فردناند بالدنسبيرغر (Baldensperger)**، وكان شاغلا لكرسي الأدب المقارن في جامعة ليون، وجامعة السوربون لاحقا، ومن أهم جهوده :«**طبعة جديدة موسعة من قائمة مصادر الأدب المقارن التي كتبها ونشرها بتز من قبل[.....] وأسس وحده في البدء، وفيما بعد بالاشتراك مع بول هزار وفان تيغم"معهد الآداب الحديثة والمقارنة"**»[2]، فقد كان هذا المعهد قبلت المقارنين من كل أنحاء العالم في الفترة الأولى من القرن العشرين إلى نهاية الحرب العالمية، بالإضافة إلى ما كان ينشره من مقالات وتمحورت في أغلبها حول التأثيرات الأجنبية في الأدب الفرنسي، ثم قام رفقة بول هزار بإنشاء أول مجلة للأدب المقارن في فرنسا تحت مسمى"مجلة الأدب المقارن"، وهكذا تولت البحوث والرسائل في هذا المجال الذي لم يبلغ 100عام بعد.

أما **بول فان تيغم(PaulVan Tieghem)** صاحب كتاب "الأدب المقارن الصادر عام 1931، فهو من أوائل الكتب التي حددت خصائص الأدب المقارن وشروطه والتي حددها في [3]:دراسة التأثير والتأثر بين الآداب الأوروبية، تعدد لغات الآداب المدروسة، ثبوت الصلات التاريخية من أجل إجراء المقارنة، المركزية الأوروبية، اعتماد كل العناصر الكوزموبولتية.

ولا يزال كتابه المذكور آنفا من أهم الكتب في الأدب المقارن ومن المراجع الهامة التي أسست وعقدت لمبادئ الأدب المقارن، وحدد أهم قضاياه وإجراءاته، فقد استطاع من خلال هذا الكتاب وما قدمه في مجلة الأدب المقارن أن يزيل الضباب الذي واجهه الباحثون قبله فتوضحت معالم الأدب المقارن، أما من جاء بعده فقد سار على خطاه.

1- مكي (أحمد الطاهر): الأدب المقارن، أصوله وتطوره ومناهجه، دار المعارف القاهرة مصر، ط1، 1987، ص 70.
2- مكي (أحمد الطاهر): الأدب المقارن، ص 83.
3-تيغم(بول فان): الأدب المقارن، ص 20.